

مأساة المكان واغترابه في الرواية الجزائرية المعاصرة

جامعة الحاج لخضر باتنة

الأستاذة : غنية بوحرة

البريد الإلكتروني:

ghania_bh@yahoo.fr

الملخص

إن الفضاء الروائي فضاء وهمي وفضاء تخيلي وإيحائي، ومن بين أهم العناصر السردية التي لا يمكن الاستغناء عنها، غير أن مجموع الأمكنة التي يلفها الفضاء الروائي في رواية التسعينيات الجزائرية قد تحول مدلولها من مجرد مكان تتحرك فيه الشخصيات الروائية وحيز تجري فيه الأحداث المتخيلة إلى مكان محمل بإشارات ذات مدلولات إبلاغية قادرة على تقديم الرؤية الأيديولوجية والسيكولوجية، فهو ينتقل من مجرد بنية وشكل هندسي إلى مكان مأساوي يساهم في خلق المعنى داخل الرواية، يحمل أبعادا دلالية ورمزية تعكس التحولات التي شهدها رواية الأزمات الجزائرية، لتخلق فضاء متصدعا يشهد هذه التحولات ويعاني الاغتراب المكاني الذي تحدده الشخصيات موطنها لها، ويترجم هذا الاغتراب فوضى الأمكنة وقلق الشخصيات، والعزلة، والاستقلالية، وحتى الجنون، فتسقط بذلك حالتها الفكرية والنفسية على المحيط الذي توجد فيه، مما يجعل المكان يحمل دلالة تفوق الدور النمطي الذي يؤديه عادة، أي أنه ينتقل من مجرد بعد هندسي تقليدي إلى عنصر بنائي جديد حافل بالرؤية الفكرية للشخصيات، لأن المكان يعكس حقيقة الشخصيات ويفسر طبيعتها ويشير إلى حالتها النفسية وطباعها ومزاجها وقد يساهم في الكشف عن التحولات الداخلية التي تطرأ عليها وهذا ما سنحاول الكشف عنه في هذه المداخلة.

الجسدية والقتل العمدي نتيجة لرفض فكر الآخر ومحاولة "رضوان" ومن معه الهروب. فالجبل بذلك يكشف عن الصراع والعنف ويشهد عملية الذبح إذ «اتجهوا بهم إلى سفح الجبل الذي ظل صامتا وغارقا في الضباب الكثيف وألقوا بهم في حفرة كثيفة وألقوا عليهم التراب»¹ وقد رموهم من قبل في سجن بدائي نتيجة كلامهم وطريقة تفكيرهم التي شهدها الجبل.

إن هذا الفضاء لا يمثل فضاء السجن والقتل ... بل هو أيضا فضاء مخصص لنشر الأفكار والأيدولوجيات، وهي الوظيفة التي يقوم بها الدكتور "أبو إبراهيم" وانضم إليه كمال "منصور" في معسكر سري يسمى بالرحمن، يعمل على نسخ الشرائط والبيانات والدعاية والدعوة والإعلام². إن الجبل بذلك فضاء واسع متعدد المهام والوظائف والمسؤوليات، متعدد الشخصيات والمستويات الاجتماعية والسياسية، يحمل رموزا ودلالات تنم عن أصحابها وتعري حقيقتهم وأيدولوجيتهم الإسلامية الأصولية.

الأخرى.

مأساة الوطن وانكساره: لاشك أن رواية التسعينيات اتسمت بمأساويتها المترتبة عن مأساة وطن جريح وقع بين محالب أبنائه العاقين. رفضه البعض وحن عليه البعض الآخر لأنه تألم كثيرا إبان الثورة التحريرية حتى وإن كان سببا في فقد عمي العربي رجله إبان الثورة في رواية "وطن من زجاج" لياسمينه صالح وبعد الاستقلال وجد نفسه على الهامش كغيره من المجاهدين حرمه وطنه رجله وحلمه، وعلى الرغم من ذلك فهو ينصح الراوي بأن يحافظ عليه ولا يتخلى عنه، وينصحه أن لا يكون مثل أولئك الكافرين بالوطن! لأن الوطن في رأيه كما يؤكد للراوي « حقيقة يجب الإيمان بها يا بني. الوطن ليس رئيس الجمهورية وليس الحكومة وليس الغيلان السياسيين، ولا الجلادين ولا السجنائين ولا المنفيين ولا المفقودين، ولا الخونة ولا الإرهابيين.. الوطن هو ما نتنفسه وما نستشعره.. هو الأعشاب التي نمشي عليها والعصافير التي توقظنا في الصباح، والمطر الذي يباغتنا من غير موعد، والتحايا البسيطة التي لا تستوعب قيمتها إلا متأخرين! »³، عمي العربي يعي جيدا قيمة هذا الوطن الذي دفع هو وغيره الثمن غاليا من أجل استرجاعه واسترجاع هويته، لكن الراوي يرى عكس ذلك. يرى أن وطنه سبب موت الكثيرين وسبب تعاستهم وبكائهم، وخوفهم، إذ كان الخوف كما يقول «هو الشيء الوحيد الذي يلاحقني في كل حياتي.. الخوف من الخوف نفسه. الخوف من اللا خوف أيضا. أن لا أخاف حين يجب أن أخاف.. أليس هذا ما لقنه لي الوطن؟ الخوف والخوف والكثير من الخوف؟ من ذا الذي يجرؤ على القول إنه تعلم من الوطن شيئا آخر غير الخوف؟ حتى حين نشعر برغبة في الحلم نخاف »⁴. لذلك نجده يتساءل: «كيف يمكن حب وطن يتربع على عرش الجريمة اليومية»⁵ ليحييه عمي العربي في الصفحات الموالية وكأنه علم بم يدور في ذهنه «لا تسمح لنفسك بأن تكره وطنك الذي تعيش وتحيا فيه أنت جزء من هذه الأرض يا بني»⁶ لكن السارد يصبر في قرارة نفسه على

رأيه و يرفض ذلك يرفض أن يكون له وطن يستحق الحب والوفاء لأنه سبب المآسي المتكررة فيقول: «ما الوطن سوى المآسي التي توحدنا. فلم يكن ثمة وطن خارج المأساة استطاع أن يجمع بين الناس»⁷.

فعلا لقد أضحى الوطن فضاء مضطربا وبؤرة للتوتر يجمع بين المتناقضات ويعكس مأساة ومعاناة الشخصيات الروائية التي عانت هذا التصدع والشرخ الذي أصاب الوطن «وهذا ما يبرر ذلك الكم من الخطابات النابية والعدوانية التي يطلقها أبطال روايات التسعينات تجاه وطنهم الأصل، وأرضهم التي ترعرعوا فيها، أو بالأحرى تلك الأم الرؤوم التي أنجبته يومًا وتنكرت لهم في هذه المرحلة وأسفرت لهم عن وجه متجهم لم يعرفوه يوما فنفروا منها زمرا وفرداى واصفين إياها بأبشع الصفات وأسوأ النعوت»⁸، لذلك كان الطاهر وطار في رواية الشمعة والدهاليز يرفض هو الآخر أن يكون له وطن يعيش من أجله ويضحى من أجله فهو لا يعترف به أصلا لأنه غير موجود برأيه « لن أموت من أجل هذا الوطن، لأن هذا الوطن لا وجود له، فإني لم أعثر عليه، وسألت التاريخ وسألت الأحياء والأموات وزرت المقابر فلم يحدثني عنه أحد»⁹. وكأنه تنكّر للأُمومة وعدم الاعتراف بها من طرف أبنائها ما يعكس رأي وإحساس الشخصيات الروائية في روايات التسعينيات التي لا تكاد تختلف عن بعضها عكس الرؤية الروائية للوطن في روايات السبعينيات التي تدافع عنه وترفع من شأنه، إنه التحول الذي شهدته الرواية والتصدع الذي أصاب فضاءاتها لتتسم بالمأساوية والفجيعة.

وفي الأخير يمكن لنا تلخيص دلالات وأبعاد الفضاءات الجغرافية التي تشترك جميعها في معان ولدت من رحم هذا الوطن البائس في الجدول التالي:

الفضاء الجغرافي	دلالاته	عنف الفضاء ومأساة الوطن
فضاء المدينة	الخراب، الدمار، الحزن، الألم، الصراع، الموت، الهلاك، المأساة.	
فضاء الشارع	الخوف، القلق، الموت، العنف السياسي، العنف الإرهابي، القهر الاجتماعي.	
فضاء الجبل	الأصولية، المعارضة، الظلم، التعسف، القهر، الإلغاء، الانتقام، الدعوة والدعاية، الموت،	

يشكل الفضاء الروائي في رواية الأزمة الجزائرية مسرحا للعنف والقتل والتدمير جعل من الشخصيات الروائية تعيش المأساة وتحلم بمكان آمن تلجأ إليه وتحتمي فيه من أعاصير الموت التي اجتاحت المدينة والشارع والجبل...

وأصبحت هذه الأمكنة تشكل فضاء محملاً بدلالات وأبعاد أيديولوجية وسياسية واجتماعية ونفسية انزاحت عن طبيعتها الحقيقية كفضاء هندسي جغرافي له حدوده وشكله الذي يميزه ويحدد وظيفته، إذ يحضر الفضاء في رواية الأزمة كمكون دلالي إيحائي ملتبساً بكل التحولات التي شهدتها الجزائر في تسعينيات القرن العشرين، فاهتمت اللغة بنقله في شكله الجديد بأبعاده المختلفة بعيداً عن البعد الهندسي والشكل التقليدي المعروف في تقديم المكان ووصفه.

إن الفضاء في رواية الأزمة هو فضاء الموت والقهر والاستلاب، إذ لا يكاد يخلو مكان في النصوص الروائية من مشاهد القتل والخراب وزرع الهلع والخوف والقلق وسط ساكنيه.

الاغتراب المكاني:

يبدو وبشكل جلي أن مفهوم الاغتراب مرتبط بالانسان وانفصاله عن الواقع والانعزال عن الناس و العالم، واختياره العيش مع نفسه في المكان الذي يريجه ويعكس غربته، لأن المكان هو الذي يربط بينه وبين العالم الخارجي بما يحمله من أبعاد ودلالات تعكس حقيقة الشخصيات التي تسكن هذه الأمكنة التي تؤدي «دورا كبيرا في تحديد الخصائص الفكرية والنفسية للشخصية، ووظيفته هي القاء المزيد من الضوء على الشخصية»¹⁰ لذلك نجد الشخصيات الروائية عادة ما تلجأ إلى « إسقاط الحالة الفكرية أو النفسية على المحيط الذي يجعل للمكان دلالة تفوق دوره المؤلف كديكور أو وسط يؤطر للأحداث»¹¹ كما هو حال شخصية البطل في رواية "كراف الخطايا لعيسى لحيلح الذي جعل من غرفته مكانا بائسا غريبا فوضويا يعاني الاغتراب حاله حال منصور الذي جعل من غرفته مملكته الخاصة وعالمه المستقل الذي لا يكاد يغادره إلا من أجل كرف خطايا أهل القرية وتتبع عوراتهم والسخرية من حالهم فيصف السارد ذلك قائلاً: «وإن تدخل يوماً ما إلى غرفة نومه.. فإنك ترى ما يدهشك ويحير لبك ويجعلك نخباً لمشاعر مضطربة، وانفعالات متناقضة، وأول ما يشد نظرك هذه الرفوف المتراسة من الكتب السمكية .. وأغلبها روايات وقصص ودواوين شعرية»¹². في هذا المقطع الروائي يقدم لنا الروائي الشخصية الرئيسة من خلال المكان الذي ينم عن الاضطراب من جهة وعن توجه وميل شخصية منصور إلى القراءة والكشف عن نوع الكتب التي تستهويه ليكشف لنا النص عن طبيعة الشخصية المثقفة التي غالباً ما تبحث عن الهدوء والسكينة والانعزالية، لكن غرفة منصور تعكس اغترابه وقلقه ورفضه للواقع بل عبثيته وسخريته من العالم الخارجي إذ يصف الراوي ذلك بقوله: « هذه الفوضى الشاملة توزعت على أرضية الغرفة، من علب مصبرات فارغة... إلى سجادة صلاة لم تنطبع عليها جبهته منذ أسابيع... وسط هذه الفوضى يعيش ويتقيأ ما يشرب ويفعل أموراً أخرى لا يجب أن يطلع عليها أحد غير الله .. وبهذا العبث يمارس حياته ربما لأنه يجد الانسجام مع ذلك كله أو لأنه بذلك يريد أن يعكس حقيقة طالما اجتهد أهل القرية في إخفائها خلف المناظر الخادعة التي تغطي بواطن الأدغال»¹³.

إن عبثية منصور وفوضى الغرفة التي تفوح برائحة الرفض المطلق للعالم الخارجي تدل على الفوضى التي تعيشها الجزائر فترة التسعينات والتحولات التي طرأت عليها فجأة واختلاط الحابل بالنابل كحال غرفته، لذلك قرر أن يعتزل الناس ويصاحب غرفته ليشكلها معا عملة واحدة ذات بصمات اغترابية تحمل «معان إنسانية ودلالات تاريخية بمواقعها وذكرياتها ووعي الذات بذلك ومقدار الانسجام والتناغم»¹⁴ بين الشخصية والغرفة التي أصبح يلازمها ملازمة تامة توحى باغترابية المكان.

إلى جانب الغرفة نجد منصورا قد اختار مكانا آخر يلجأ إليه أثناء زيارته القليلة جدا لوالدته، لكي يخرج من اغتراب ويدخل إلى اغتراب آخر، إذ حاول أن «يجد سحر البحر الذي طالما تحدث عنه أهل الفن والشعراء... لم يجد في البحر غير هدير الموج المزعج ورائحة الطحالب ..»¹⁵ عكس ما كان يلقاه الرومانسيون والعشاق والسكران... في البحر فيخاطبهم بقوله: «لا شيء في البحر يا غواة.. فلا تُنطقوا صمته بما تشاءون .. لا شيء في البحر فانصرفوا.. إنه قطرة فيكم وهبأة في فضائكم العميق، تأملوا أنفسكم قليلا سوف تصابون بالجنون أو الدوار الأبدي»¹⁶. لقد أصبح البحر ملجأ اغترابه وهروبه من الواقع، ينجيه ويشكو إليه الوضع المأزوم وما آلت إليه بلاده، ويعلن سحقه على الجميع بما فيهم رجال السياسة الذين عاثوا في الأرض فسادا كما يعتقد ذلك من خلال أصوات الحيوانات التي كان يقلدها.

إذا كانت الغرفة والبحر فضاءان اختارهما منصور عن وعي ورغبة منه في ملازمتها لبث شكواه لهما، فإن هناك مكانا آخر (السجن) يحمل إيماءات اغترابية لبث فيه منصور ما قُدر له أن يبقى فيه قصرا نتيجة عبثيته واستهتاره ولا مبالاته، وهو من الفضاءات المغلقة التي تنم عن انعدام الحرية كما أشرنا سابقا، وقتل حرية التعبير الذي ينم عن الاغتراب السياسي من خلال الشريط الذي قام بتسجيله وكان سبب دخوله السجن ليواصل غربته المكانية التي رافقته منذ بداية الرواية

من خلال ما سبق يتضح جليا للقارئ التحولات التي شهدتها فضاءات رواية الأزمة التي كانت نتيجة حتمية فرضتها التحولات السياسية، أو هو انعكاس الأزمة على الرواية بصفة عامة وعلى الفضاء الروائي بصفة خاصة، باعتباره الحيز الذي تجري فيه الأحداث وتتحرك فيه الشخصيات الروائية لتكسبه دلالات ذات أبعاد نفسية واجتماعية وأيديولوجية وسياسية كشفت عنها لغة الرواية التي فضحت حقيقة الفضاء وما يعانيه من اغتراب وعنف واضطراب ما يبين حداثة بنية الفضاء الروائي الذي لم يعد كل هم الوصف الخارجي الطوبوغرافي كما في الرواية التقليدية.

- ¹ نفسه، ص259.
- ² - نفسه، ص 263
- ³ ياسمينه صالح: وطن من زجاج، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006، ص11.
- ⁴ نفسه: ص156.
- ⁵ نفسه، ص259
- ⁶ نفسه: ص 167
- ⁷ نفسه: ص 165
- ⁸ نفسه: ص 165.
- ⁹ الطاهر وطار: الشمعة والدهاليز ، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 184.
- ¹⁰ يحيى العبد الله: الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط01، 2005، 161، .
- ¹¹ حميد لحمداني: بنية النص السردي، ص71.
- ¹² عبد الله عيسى لحيلج: كراف الخطايا، مطبعة المعارف، عنابة، ط1، 2002، ص 3.
- ¹³ نفسه: ص 3.
- ¹⁴ روزو ماري شاهين: قراءات متعددة للشخصيات، دراسة تطبيقية على نجيب محفوظ دار ومكتبة الهلال مصر، ط01، 1995، ص44.
- ¹⁵ عيسى عبد الله لحيلج: كراف الخطايا، ص 168.
- ¹⁶ نفسه: ص265.